صراع الثقافات والمادة هل هو صدام وقائي؟

حينما نتحدّث عن مصارعة الثقافة كشق حضاري للمادية التي هي الشق الحضاري الثاني، فإننا نستبعد ولاشكّ فكرة «الكيان السياسي» ذلك لأن الصّراع هنا لا يتطلّب الانطلاق من واقع دولة أو نظام، كما أنّ إشكالية البون الشاسع بين الواقع والنظريّ تظلّ حاضرة مع تعدّد الاعتبارات ووجهات النّظر..

ويرى فوكوياما أنّ الإسلام السياسي مثلاً أثبت أنّ الإعجاب به على المستوى النظري أكثر بكثير منه على أرض الواقع، فبعد ٢٣ عاماً من حكم رجال الدّين الأصوليين، معظم الإيرانيين، خاصّة الشبّان، يريدون العيش في مجتمع أكثر ليبرالية بكثير، ويحسّ الأفغان الذين خبروا حكم طالبان بالشعور نفسه؟ وبالتالي فإنّ الضغينة ضدّ الأمريكيين لا تترجم إلى برامج سياسية قابلة للحياة يمكن للمجتمعات الإسلامية اتّباعها[١].

إنّ هذا الطّرح لا يعتمد على الدقّة، لأنّه يضع نتائج لغير المقدمات التي تفضي إليها.. ويمكن أن ننطلق في مناقشة هذا الرّأي ممّا قاله أصحاب كتاب «نظرية الثقافة»[٢]، والذين يقولون: عندما لا تتحقّق الوعود التي يقطعها أنصار نمط حياة ما لأنفسهم (أو المؤيدين من أنماط حياة أخرى يحاولون تجنيدهم) خلال محاولات متكرّرة، فإنّ التناقض بين المتوقّع والمتحصّل قد يؤدّي إلى إزاحة أفراد عن رؤيتهم الحالية لما يجب أن يكون

(١) لقد ربح الغرب (سبق).

(٢) ميشيل تومبسون Micheal Thompson ريتشارد إيليس Richard Ellis وآرون ويلدافسيكي Aaron Wildavsky.

عليه العالم، ودفعهم إلى أنماط حياة أخرى[1].

ومعلوم أنّ اللحظة التي تنتهي فيها عملية تطبيق التجربة، والتي يحكم فيها على هذه التجربة بالنجاح أو الفشل، لحظة ليست مرتبطة فقط بالنظرية نجاحاً وفشلاً، بل وأيضاً بالذين من حولها، سواء كانوا من أنصارها أو من أعدائها أو حتى من المتفرجين المتريثين في الحكم عليها..

وحينما تنجح نظرية ما، فإنّ الذين يصفقون ليسوا هم أولئك الذين راهنوا على نجاحها قبل التطبيق فقط، بل الكثيرون غيرهم، ممّن لا يستطيعون إنكارها واقعاً، أو الذين يرون من مصلحتهم التصفيق لها.. وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا فقال: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا﴾[2].

وقد يحدث العكس، فحين تتقهقر دعوة ما، فإنّ المتذبذبين وأصحاب المصالح كلّهم سيغادرونها.

وبالتالي فإنّ النجاح والفشل يعيدان موقعة «النّاس» إزاء الفكرة من جديد، وبذلك يولد واقع آخر يتلاءم مع الظرف الجديد لهذه الفكرة الناجحة أو الفاشلة..

وكلام فوكوياما يقع في نقض نفسه بنفسه، فمثلاً بالنسبة للإسلام السياسي يعدّ الإعجاب به من الناحية النظرية أكبر من التفاعل مع تجاربه التطبيقية الواقعية في أكثر من بلد، وهذا يخدم رأينا نحن، وهو أنّ مثالية «النظرية» باقية، وأن الذي ينكسر هو «الإسقاط»، (التطبيق) وهو ما يعني أنّ المعجبين بنظرية الإسلام السياسي، لا يحكمون عليه من خلال تطبيقات أشخاص هنا أو هناك.. ويبقى الحكم على هذه النماذج حكماً على أشخاص أخطأوا، أو قصروا، لا على الإسلام السياسي ذاته كنظرية.

(١) «نظرية الثقافة» ص ٦١.

(٢) سورة النصر آية ١ ـ ٢.

وهنا صلب الموضوع، فعند سقوط نموذج أو تجربة ما، فإنّ المعجبين بنظريتها لا يتحوّلون عن النظرية، بل عن التجربة الجزئية القاصرة، وهُنا يبقى طلب الأكمل والأحسن هو ما ينتظره هؤلاء النّاس، والأحسن عندهم ليس في التحوّل إلى نظرية أخرى، بل في تجسيد أمثل لنظرية الإسلام السياسي تلك.. ويبقى النموذج التطبيقي الجديد والمتمثّل في تجربة جديدة يحاول أن يتفادى أخطاء من سبقه.. وهكذا يتبلور «الأداء الأمثل» للنّظرية التي تبقى النموذج الوحيد لأنها مرتبطة بالإيمان والكفر..

إنّ أشياع الإسلام السياسي لا ينطلقون في تعاملهم مع «نظريتهم» من كونها «محل تجريب»، وبالتالي يمكن تركها إذا ما أثبتت جدارتها.. إنّ الخيارات والتحوّلات هنا منعدمة خارج إطار النظرية، لأنّ الأمر مرتبط بأحكام شرعية تستند إلى عدّة نصوص، منها «كفر من لم يحكم بالإسلام» ومنها عدم قبول الله لعمل الإنسان مهما كان إذا كان خارج إطار الإسلام.

وبهذا فإنّ المجال لطرح البرنامج السياسي الغربي، أو الأمريكي كبديل، مجال منعدم أصلاً..

فإذا حكمنا على الكثير من التحوّلات التي تحدث إزاء فشل تطبيق نظرية ما بأنّها تحوّلات عن التطبيق لا النظرية، وفهمنا أنّ النموذج يبقى قائماً، ومقدّساً أيضاً، عرفنا أنّ الانتقال يجري بعد ذلك من طريقة تطبيق إلى طريقة أخرى للنظرية ذاتها، لا من نظرية إلى نظرية، وهذا ما يفسّر محافظة الإسلام السياسي على قداسته وجاذبيته وسرّ استقطابه رغم ما سبق لتجاربه من النكسات والانكسارات.

ثمّ أنّ فوكوياما يرى أن الضغينة ضدّ أمريكا هي التي من المفترض أن تتحوّل إلى برامج وأنظمة سياسية تستوعب المجتمعات الإسلامية، وهو ما يعني أن تكون هذه البرامج مجرّد ردّات فعل مرتبطة بوجود الهيمنة

الأمريكية، وهو ما يخرج النظرية عن طابعها الحقيقي والتي تأخذ فيه مبرّر وجودها من ذاتها، «فالإسلام السياسي» مثلاً كما يسمّيه فوكوياما ليس مجرّد ردّة فعل تختفي باختفاء مسبّبها (صاحب الفعل الأصلي)، بل هو عقيدة ت أخذ مبرّر وجودها من ذاتها.

ثمّ إن محاكمة هذه التجارب ذاتها يجب أن تكون عادلة، فقد لعب المحيط العالمي الذي ظهرت فيه دوراً كبيراً في وأدها وكسرها. في الوقت الذي كُتِبَ فيه النجاح لتجارب أخرى أقلّ قوّة وحيوية لكون الغرب احتضنها ودعّمها وحماهَا، لقد تعرّضت كلّ تجارب الإسلام السياسي للضرب والتآمر الغربي ومن سار في فلكه، ولم يكن من الممكن آنذاك الحديث عن إمكانية نجاح هذه التجارب، وكما أنّه ليس من المعقول محاكمتها فيما بعد..

وأمام هذا الواقع يقول فوكوياما: الصّراع الذي نواجهه ليس صداماً بين ثقافات عديدة، مختلفة ومتساوية، تتقاتل فيما بينها على غرار القوى العظمى في القرن التاسع عشر في أوربا، الصّدام يقتصر على سلسلة من المعارك الوقائية أو الجهود الدفاعية، الصّادرة عن مجتمعات غَدَا وجودها التقليدي مهدداً جرّاء الحداثة، إنّ قوّة الردّ تعكس صرامة وقسوة هذا التهديد لكن الوقت في صالح الحداثة[1].

وينفي فوكوياما هنا «صراع الثقافات» ويعتبر ما يحدث مجرّد صدامات وقائية تقوم بها مجتمعات تهددها الحداثة.

إنّ مصطلح «الحداثة» الذي يستعمله فوكوياما يعدّ المطابق الفعلي «لثقافة المادة» أو لما يمكن أيضاً أن نسمّيه «اللاثقافة» والتي هي حال الخروج عن كلّ الأطر الدينيّة، والأخلاقية التقليدية لصالح المادّة..

إنّ نظرية الشبكة تجعل المجتمعات بعيدة عن إحداث توجّه موحّد ضدّ

(١) «لقد ربح الغرب» لفوكوياما (سبق).

الولايات المتحدة الأمريكية أو الغرب عموماً وثقافته الماديّة.. لذلك تظهر نتوءات نخبوية مسننة تقطع علائقها المتعددة لصالح ولائها الديني لتشكّل ظاهرة متميزة عن المجتمع الذي تعيشُ فيه، وقد كانت فكرة الكثير من هذه الجماعات (الإسلامية مثلاً) تدور حول وجوب محاربة ظلال وصدى الحضارة الغربية في البلاد العربية والإسلامية، وكانت لذلك تفتح معاركها ضدّ أبناء وطنها من الذين تراهم امتداداً للحضارة الغربيّة، وكانت تنظر إلى هؤلاء على أنهم ممثلين حقيقيين لشق هذه الحضارة المتيسّر، وهو الشقّ الثقافي، والذي هو هُنا.. «الثقافة المادية» أو «اللاثقافة»، مقارنة أو بالنسبة للثقافة الأهلية..

ولعلّ هذه الجماعات قد أدركت خطأ إدارة حربها داخلياً في إطار الأوطان التي تعيش فيها، ضدّ نُخَب تراها مستغربة لأنّ ذلك يعدّ محاربة «للظلّ» بدل الأصل..

لذلك تعدّ نظرية بن لادن نقلة قويّة في هذا الإطار، حين حوّل الصّراع من محاربة للظلّ إلى محاربة للأصل، ولعقود كان الصّراع داخلياً، أمّا الآن فقد أخذ الصّراع توجّهاً آخر عُدّ بن لادن نموذجاً جيداً له..

لقد أدركت النخب الثقافية أنه ليس بإمكانها إقامة «يوتوبياها» ودولها التي حلمت بها ونظّرت لها في أوطانِها بسبب الإفشال الغربي لكلّ تجربة من هذه التجارب.. (السّودان ـ أفغانستان..) عبر التضييق والحصار والتآمر، وكان عليها أن تختار بين أنْ تترك الحنفيّة مفتوحة وتقوم مع ذلك بمُحاولة لتجفيف الأرضية بخرقة قماش، وبين أن تذهب رأساً إلى الحنفية فتغلقها ثم تعود بعد ذلك إلى التنشيف..

وبن لادن نموذج رائد في التوجّه الثاني، وهو مواجهة الأصل الذي تستمدّ منه الفروع قوتها وبقاءها ومَنَعَتها.

ولاشكّ أنّ التجارب الذي ستليه ستكون مضطرّة للاختيار بين

نظريته العالمية، وبين أن تدخل في صراعات محلية، وطنية في دولها..

وحين يتحدّث فوكوياما عن الثقافات فإنّه يقول الصراع الذي نواجهه ليس صداماً بين ثقافات عديدة مختلفة ومتساوية..

ولعلّ الخلط هنا بين الحضارة والثقافة هو الذي يملي مثل هذا الكلام، إذْ ليس من شرط الصّدام العنيف ولا الواسع أن يكون مُتساوي الأطراف.

والعبرة هنا ليست بالواقع، بل بتراكمية وسيرورة الأحداث وتوجّهاتها، والذي هو اليوم ظواهر منعزلة قليلة ومتفرّقة له احتمالان مستقبلاً، إمّا أن يتوسّع، وأمّا أن ينكمش..

فوكوياما في هذا يراهن على شيء واحد يقول عنه: لا أرى قصوراً في إرادة الولايات المتحدة بالفوز[1].

والقضية لا ترتبط في الصّراع بنصف واحد من المعادلة، لذلك فإنّ «عدم القصور الأمريكي» لا يدلّ أبداً على تسليم «الآخر» (الثوريّ الثقافي)، واندماج «الثقافات» في النموذج الغربي الذي يراد تنميط العالم عليه.

ففي العالم الإسلامي يقوم المندمجون في المجتمع من أئمة ووعّاظ ورجال دين ملتزمين بالواقع أو بمقتضيات السياسات الداخلية بإعطاء نصف الحقيقة التي تعدّ منطلقاً للبحث عن نصفها الآخر، وبين النصفين أبواب مفتوحة، وحين يندمج الشّخص في خيار «التديّن» فإنه يجد نفسه بعد ذلك يقرأ ويسمع ما لم يسمعه في نصف الحقيقة الأول، والأمر يتعلّق بآيات وأحاديث (مقدّسات) تجري «مصادرتها»، أو «السّكوت عنها» في «الشوط الأوّل للرّحلة» وهو الشوط الذي يسمّيه الغربيون عادة «بالإسلام المتسامح»، وحين يلج الشّخص الشوط الثاني يبدأ في اكتساب ما يسمّيه

(١) مقال فوكوياما (سبق).

الغربيون بـ«التطرّف»، وإذن فإنّ هذا التطرّف (كما يسمونه) لن يكفّ عن الظهور لوجود سببين رئيسيين لظهوره، وهما:

١ ـ وجود ما يسمّى بالتديّن العادي والمنضبط، والذي يعتبر بوابة، أو مرحلة ابتدائية للانطلاق نحو هذا التطرّف، إذ تبدأ رحلة الإنسان عادة بموعظة بليغة في مسجد، موعظة (عن الموت، أو عن الصّلاة)، وبمرور الزّمن يقطع المتديّن مراحل أخرى يعرف فيها أنّ أمته أمة واحدة، ويقرأ فيها عن اليهود وظلمهم، ويرى بأم عينه الدّعم الغربي غير المحدود لليهود، ثم يقرأ عن وجوب الردّ على الظّالم.. وهكذا تتبلور الفكرة شيئاً فشيئاً لتخلق واقعاً (جمعياً) نخبوياً في إطار المجتمع الواسع، غير أنّ هذا الجمع النخبوي يستند في إصراره وبقائه إلى «النصّ الشرعي» وإلى كونه جزء من جمع كبير موجود في شكل نخب أخرى مماثلة له فكرياً موجودة في الكثير من البلدان في العالم، ثم يرى له في الماضي مرجعيات أخرى، لا يهمّ إنّ كانت قد نجحت في إرساء النظرية أو فشلت مادام هذا الفشل حسب رأيه راجعاً إلى تآمر (الآخر) (العدوّ).

٢ ـ بقاء الإسلام، الذي يحمل نُصُوصاً ترسم للواقع خرائط ودوائر معيّنة فيها تفصيل الأحكام، وكيفية معاملة الآخرين في حال المسالمة والحرب، في ربط بين كلّ ذلك وبين «الجنّة والنّار»، وهُنَا تدخل العقيدة مجال الصّراع وتصبح التكنولوجيا وبالاً على نفسها (صراع الطائرة الأمريكية المختطفة مع البرج الأمريكي)، ويمكن للغرب أو للولايات المتحدة الأمريكية ضبط أُطر للتعامل مع إفرازات ونتائج لمراحل التبلور الثقافي الرافض للاثقافة، لكنّ المستحيل هو مَنْع هذه التشكلات (المتطرفة حسب الغرب) منذ البداية.. لأنّ ذلك يستدعي إزالة السببين المذكورين من أساسيهما، وهذان السببان هما: «التدين العادي الذي عليه الغالبية في المجتمعات الإسلامية، وكذا إزالة الإسلام نفسه».